جذور الاستقلال في جامع الزّيتونة 1900 – 1920 م

كوثر هاشم / السعيد عقيّب–جامعة الشهيد حمّة لخضر /الوادي

ملخّص :

تتناول الدّراسة دور جامع الزّيتونة والنّخبة الوطنيّة الزّيتونيّة في العمل الوطني التّونسي ،وفي بلورة مطلب الاستقلال في الفترة ما بين 1900 -1920 على اعتبار أنّ مطلع القرن العشرين مثّل بدايات الوعي والنّهضة الوطنيّة في تونس ،وصولا إلى سنة 1920 عندما أسّس الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي - الذي يعتبر رائد الحريّة الوطنيّة التّونسيّة - الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي.

الكلمات المفتاحيّة:

الاستقلال – جامع الزيتونة –الحزب الدستوري الحر –الجمعية الخلدونية –الزيتونيون

Abstract

The study address the role of El Zaytouna Mosque and the national elite al-Zaytunah issues in the work of the Tunisian national, in elaborating the independence demand, in the period between 1900 since the beginning of the twentieth century, such as the beginnings of awareness of National Renaissance in Tunisia, access to the year 1920 when the foundations of Sheikh Abdul Aziz Ta'allibi, which is considered the pioneer of freedom, Tunisian National Tunisian Constitutional Liberal Party.

key words: Independence - El Zaytouna Mosque - Free Constitutional Party - Khaldounia Association - Zeitounis

مقدّمة :

لم يكن جامع الزّيتونة مؤسّسة دينيّة تربويّة يتلقّى فيها أبناء تونس تعليمهم فحسب بقدر ماكان الملهم الرّوحي، والمدافع الشّرس عن مقوّمات الهويّة الوطنيّة التّونسيّة وانتمائها العربي والإسلامي منذ تأسيسه في القرن الثّاني للهجرة، والمؤسّسة التي أنجبت العديد من الوطنيين التّونسيّين الذين تزعّموا حركة المقاومة بمختلف أشكالها ضدّ الاحتلال الفرنسي، وساهم مساهمة فعّالة في تنوير الشّعب التّونسي وإصلاحه وبعث همم الوطنيّة حتّى توصّل إلى ضرورة المطالبة بحقّه في الاستقلال، والتحرّر.

وتهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على مدى مساهمة الجامع الأعظم في تكوين ثلّة وطنيّة مثقّفة مشبّعة بالروح الوطنية ،وحاملة للواء الدفاع عن الهويّة والقضيّة التّونسيّة وتحقيق الاستقلال.

وقصد التعرّف على ذلك قسمنا الموضوع إلى ثلاثة عناصر أساسيّة أوّلها موقف جامع الزيتونة من الحماية والسياسات الفرنسيّة ،وثانيها دور النّخبة الزيتونيّة في إيقاظ الحسّ الوطني التّونسي وآخرها الزّيتونيّون وتبنّي مطلب الاستقلال،معتمدين على المنهج الوصفي التّحليلي ،وموظّفين عدّة دراسات أهمّها الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة لخير الدين شترة ودور النخبة الجزائرية في الحركة الوطنية التونسية بين الحربين ليوسف مناصرية والحركة الوطنية التونسيّة للطاهر عبد الله وموجز تاريخ الحركة الوطنية التونسية لمجموعة من المؤلّفين.

أوّلا: موقف جامع الزّيتونة من الحماية والسّياسات الفرنسيّة :

انطلاقا من أسس ومباديء الزّيتونة ،وقيمه الوطنيّة المستمدّة من العروبة والإسلام الدّاعية إلى ضرورة الاستقلال بالمقوّمات الوطنيّة عن كلّ ما هو أجنبي ودخيل، فقد رفض الانصياع لكلّ محاولات سلط الحماية الفرنسيّة التي هدفت إلى تغريب وفرنسة المجتمع التّونسي بكلّ خصوصيّاته، حيث كانت القيادة الفكريّة خلال السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي لتونس تخضع للمدرسة الزّيتونيّة في الحياة الثّقافيّة ،والسّياسيّة والاجتماعيّة، وهي الموجّهة لأغلب التحرّكات الوطنيّة، والتجمّعات الحزبيّة داخل المجتمع التّونسي، وبذلك يعود النّشاط الوطني للنّخبة الزّيتونيّة المناضلة إلى بداية فرض الحماية حيث احتجّ العلماء الزّيتونيّون على إمضاء معاهدة باردو في 12 ماي 1881، واتّفاقيّة المرسى في 08 جوان 1883، ومصادقة البرلمان الفرنسي عليها وكردّ فعل منها على هذا الاحتجاج قامت سلطات المحتل الفرنسي بفصل البعض من وظائفهم، بينما اختار آخرون الهجرة للعمل خارج الدّيار، ولحشد التّأييد ،وتعبئة رأي العالم الإسلامي في انتظار الفرصة المواتية للعودة إلى أرض الوطن ،ومن بينهم الشّيخ صالح الشّريف ، ومحمد الخضر حسين وإسماعيل الصفايحي وغيرهم.

كانت فرنسا متيقّنة من خطر جامع الزّيتونة عليها ، وعلى سياساتها في تونس لذلك وقفت في وجه حركة إصلاحه ، وتحديث مناهجه وأساليبه منذ إعلانها الحماية 1881، وارتكزت مخطّطاتها على عرقلة تطوير الثّقافة القوميّة ، ومضايقة اللغة العربيّة حتّى لا تكون أداة النّهضة الفكريّة، والثقافية في البلاد التّونسيّة، ومنع الزّيتونيّين من تقلّد الوظائف الإداريّة بحجّة أنّهم ليسوا مثقّفين ثقافة فرنسيّة ، وإلى جانب ذلك شنّت سلط الحماية حملة دعائيّة مغرضة من خلال صحفها لتأليب الرّأي العام الفرنسي، والعالمي على الجامع الأعظم وخرّيجيه، ووصفتهم بالجمود ،والتصلّب، وأنّهم خاملين، وأنّ

مدارسهم لا تقدّم أناسا متحضّرين، يمكن الاعتماد عليهم وفي الوقت ذاته لجأ الاحتلال الفرنسي إلى مناصرة البدعة، والخرافة فأغدق على أصحابها بالأموال ، وأيّدهم معنويّا، ومنحهم مكانة ومحابة، ولقوا بذلك التأييد ،والمساندة على حساب العلماء الزّيتونيّين المسلّحين بالثّقافة العربيّة والإسلاميّة والإصلاح ، والرّافضين لاستمرار الحماية مطالبين بتغيير الوضع.

ورغم ما واجهته النّخبة الزّيتونيّة من مضايقات من الاحتلال إلّا أنّ ذلك لم يثن من عزمها، ولم يحدّ من مقاومتها له حيث عادت بعلمائها وطلبتها بقوّة إلى مسرح العمل الوطني منذ العشريّة الأولى للقرن العشرين، وبرز ذلك جليّا من خلال معارضة الزّيتونيّين إجراءات بلديّة مدينة تونس بخصوص الرّفع في سعر الماء الصّالح للشّرب ،واعتبرتها مخالفة لأحكام الشّريعة الإسلامية.

ومن خلال موقفهم من أحداث مقبرة الزلّاج، عندما حاولت بلديّة تونس تسجيل المقبرة التي كانت قانونيّا وقفا من أوقاف المسلمين، ومن مسؤوليّة " جمعيّة الأوقاف " غير أنّ هذه الأخيرة أبلغت البلديّة بأنّها غير قادرة على الإشراف عليها خاصّة أنّها لا تتمتّع بأيّ وقف يضمن لها دخلا لتسيير شؤونها، فعمد مسؤولو البلديّة إلى تقديم طلب إلى المحكمة العقاريّة المختلطة في 26 سبتمبر 1911 ممضى من كاهية رئيس البلديّة لتسجيلها ، وفي 07 نوفمبر دعي سكّان العاصمة تونس لحضور عمليّة التّسجيل فاحتشد مابين 2000 و3000 تونسي منددين ، ومنتفضين رافضين أن تصبح الزلّاج أرضا في قبضة المحتلّ الفرنسيّ لكن سرعان ما تحوّلت إلى أحداث دامية بسبب إطلاق أحد مسؤولي الشّرطة الفرنسيّة الرّصاص ، فقتل به أحد التّونسيين ممّا أثار بقيّة المحتشدين ، واختلط الحابل بالنّابل، واشتبك الطّرفان، حتّى راح ضحيّتها عدد من التّونسيين ، فضلا عن الجرحى والمتّهمين الذين بلغ عددهم أكثر من 800 تونسي قدّموا للمحاكم منهم 72 شخصا مثلوا أمام المحكمة الفرنسيّة الجنائيّة في قضيّة واحدة بتهم متعدّدة كالقتل، والمشاركة فيه، ومحاولة القتل،والسّرقة ،والإخلال بأمن الدّولة وغيرها ، وكلّها كانت تهما واهيّة مزيّفة لفّقتها سلط الحماية لهم انتقاما منهم على معارضتهم لها، ومواجهتها في يوم الزلّاج.

لقد كان جامع الزّيتونة معقل احتجاجات التّونسيّين على تسجيل المقبرة ، حيث كتبت المعلّقات على الأبواب تدعوا السكّان إلى التجمّع أمامها احتجاجا على ضمّها لذلك حمّلت السّلط الفرنسيّة حركة الشّباب التّونسي التي كان يتزعّمها علي باش حمبة مسؤوليّة الحوادث فعطّلت جريدتها التّونسي ،وأعلنت الأحكام العرفيّة في البلاد التي بقيت تحت الحكم العسكري منذ 1911 إلى غاية 1922.

ورغم الآثار العميقة والآلام التي خلّفتها هذه الأحداث في نفوس التّونسيّين إلّا أنّ تلك الأحداث قد بيّنت أنّ روح المقاومة قد ولدت في الجماهير بعد أن كانت لا تشعر بها إلّا النّخبة المثقّفة وحدها ، إذ لم تلبث أن برز صوت معادي للأجانب في تونس خاصّة منهم الجالية الإيطاليّة التي كانت تتمتّع بمكانة هامّة في شركة الترام للنّقل الفرنسيّة التي كان يتقاضى فيها العامل التّونسي أجرا زهيدا مقابل ما يتقاضاه العامل الفرنسي والإيطالي ،لا سيما بعدما تسبّب سائق إيطالي في قتل طفل تونسي يوم 09 فيفري 1912، فثّر على إثرها التّونسيّون مقاطعة ركوب التّراموای ،وتزامن ذلك مع تأثّرهم بما كان يحدث في الجارة طرابلس التي احتلّها الطّليان منذ 1911 ،وطالب العمّال منهم بالمساواة في الأجور بينهم و بين بقيّة العمّال الأجانب.

أصرّ التّونسيّون على موقفهم، وشجّعهم على ذلك خطب أئمة المساجد وشيوخ الزّوايا، والتقّوا حول جريدة التونسي لسان حال حركة الشّباب التونسي والصّحف الإسلامية الأخرى، وتألّفت لجنة للدّفاع عن حقوقهم على رأسها العديد من الشّخصيّات الزّيتونيّة منهم عبد العزيز الثّعالبي ، وعلي باش حامبة وحسن قلاتي ومحمّد نعمان، إضافة إلى الأستاذ الفرنسي أوغوست ديسيتري (August Destrée)غير أنّ الإدارة الفرنسيّة اعتبرت مقاطعة التّونسيين لشركة التّقل الفرنسيّة ومساندة الزّيتونيّين وجماعة الشّباب التونسي لهم مؤامرة سياسيّة ضدّها، فردّ عليها علي باش حامبة مخاطبا كاتب الحكومة العام قائلا : " إنّي أتساءل لماذا يراد الزجّ بفرنسا في أمور لا علاقة لها بمصالحها ... لن نرضى إذا ما ناقشنا أعمال إدارة الحماية أو شركة خاصّة مسؤولة عن مصلحة عموميّة... بأن يعترض علينا بدعوى أنّنا نكسر شوكة فرنسا في هذه البلاد. "

اعتبرت فرنسا ذلك تحدّيا لها من قبل النّخبة التّونسيّة المثقّفة، وإيذانا لها بتنامي شعبيّة الحركة الاحتجاجيّة والمطلبيّة ،ورأت ضرورة التخلّص من زعمائها لذلك سارعت سلط الحماية بإصدار أوامر نفي كلّ أعضاء اللّجنة طبقا لقرار أصدرته في 13 مارس 1912 ،فنفي عبد العزيز الثّعالبي على إثره إلى فرنسا ،ومحمّد الخضر حسين المدرّس بجامع الزّيتونة، والمدرسة الصّادقيّة ، وعلي باش حمبة الذي استقرّ بالأستانة حتّى وفاته ، كما أعلنت حالة الحصار على البلاد ،وصادرت الصّحف والمجلّات التّونسيّة كالإتّحاد الإسلامي و tunisienle،والمشير ومرشد الأمّة والصّواب ، فشلّت بذلك الحركة الفكريّة والسّياسيّة في البلاد التّونسيّة.

ثانيا : دور النّخبة الزّيتونيّة في إيقاظ الحسّ الوطني التّونسي :

إنّ عمليّة نشأة الحركة الوطنيّة التّونسيّة كردّ فعل منظّم، ومؤطّر له مطالب ووسائل إبلاغ، وتأثير قد ارتبطت بإرث الحركة الإصلاحيّة التي نشطت في تونس قبل فرض الحماية ، بفضل الدّور الكبير الذي قام به الوزير خير الدّين التّونسي ذو التّكوين الزّيتوني العربي الإسلامي الذي نجح في إنشاء المعهد الصّادقي الذي أسّسه في 13 جانفي 1875 ، وإصلاح التّعليم بالزّيتونة إلى أن تمكّن من إصدار دستور 1861 الذي اعتبر إعلانا لحقوق الإنسان، وللمباديء الدّيمقراطيّة من حريّة، ومساواة بين الأفراد، والحريّة الشّخصيّة، وحريّة المعتقد، وعدالة الضّرائب.

إنّ اهتمام الحركة الإصلاحيّة بعصرنة التّعليم ، ونشره جعلت منه إحدى أهمّ شروط نهضة البلاد التّونسيّة،ممّا أدّى إلى تفاعل قطاعات التّعليم، والصّحافة،والعمل الجمعوي معها، ومع رجالها الذين كان أغلبهم من خرّيجي جامع الزّيتونة، وشيوخها فشكّلت بذلك نواة الحركة الوطنيّة التي جمعت بين إشعاع المؤسّستين التّعليميّتين جامع الزّيتونة، والمعهد الصّادقي 1876 ،والمدرسة الخلدونيّة 1896 من جهة وتطوّر الصّحافة(الحاضرة 1888 – 1911) وبداية عمل الجمعيّات (جمعيّة قدماء الصادقيّة 1905) من جهة أخرى ،والتي بقيت تكافح من أجل تقدّم البلاد واستقلالها الأمر الذي أدّى إلى إيقاظ الرّوح الوطنيّة لدى الفرد التّونسي، وترسيخها وتحوّلها فيما بعد إلى حركة مطلبيّة للحقوق والحريّات، توّجت بتبنّي مطلب الاستقلال.

وبالرّغم من جمود أساليب الدّراسة ومناهجها في جامع الزّيتونة إلّا أنّه كان أشبه بخليّة النّحل ، اشتهر بالكثير من الشّخصيّات العلميّة والأدبيّة، تشدّ إليه الرّحال من الأقاصي خاصّة من أقطار بلاد المغرب التي كانت تعاني من ويلات عدوّ مشترك كما أنّ ذلك لم يمنعه من أن يوجّه الحركة الوطنيّة التّونسيّة بروحه وتعاليمه، وقيمه، ومبادئه العربيّة، والإسلاميّة منذ فرض الحماية 1881 م، وحتّى ظهور الحزب الدّستوري الجديد 1934، إذ أنّ جلّ المثقّفين التّونسيّين هم من خرّيجي الزّيتونة، والذين تقلّدوا عدّة مناصب في الدّولة كمعلّمين للغة العربيّة أو قضاة ،أو موظّفين في المحاكم، أو محامين أو عدول موثّقين، وحتّى من رجال الشّرطة والحرس الوطني، فضلا عن الإداريين والأدباء والشّعراء و الكتّاب، وكذا رجال النّهضة الإصلاحيّة كلّهم كانوا من ثمرة الزّيتونة أمثال الشّيوخ : سالم بوحاجب، والشّيخ قبادو ،والشّيخ بيرم الخامس ،وغيرهم.

كما أنّ قادة الحزب الحرّ الدستوري التونسي (القديم) وفي مقدّمتهم عبد العزيز الثعالبي كانوا زيتونيّي النّشأة والتوجّه ،والانتفاضات الشّعبيّة، والثّورات المسلّحة التي قامت في فترات مختلفة ،والتي استهدفت المستعمر،وظلمه كانت قد اقتبست من روح الزّيتونة، وما تمثّله من قيم خالدة ، ماساعدها على أن تطلق شرارتها الأولى معلنة عداءها للمحتل الفرنسي ،وحاملة لواء الدّفاع عن الوطن واستقلاله.

غير أنّ زعماء الحركة الوطنيّة ، والمسؤولين على تسيير جامع الزّيتونة لم يسعوا حقّ السّعي لإصلاح المنظومة الزّيتونيّة وعصرنتها ، على الرّغم من انتقاد البعض لأساليبه التّقليديّة في التّعليم على رأسهم عبد العزيز الثّعالبي، وذلك أثناء فترة دراسته بالجامع حين انتقد كتب التّدريس، ودروس مشائخه واعترض عليهم في عدّة مسائل لأنّه أصبح مقتنعا بأنّ التّعليم الزّيتوني لم يعد متوافقا مع ما يتطلّبه المجتمع التونسي من حيويّة، وروح العصر، لكنّه لم يجد آذانا صاغية، بلنفّر بعضهم منه فبقي التّعليم الزّيتوني على حاله، ولعلّ السّبب في ذلك يعود إلى عدم توفّر المدرّسين الأكفّاء للقيام بهاته المهمّة،ووقوف الاستعمار حجر عثرة في سبيل تطوير الزّيتونة ونهضة المجتمع التّونسي.

وفي إطار محاولة إصلاح الزّيتونة تمّ تأسيس المدرسة الخلدونيّة في 22 ديسمبر1896 ،على يد جماعة من محرّري جريدة الحاضرة التي تأسست سنة 1888 من قبل ثلّة من المثقفين التونسيين من خريجي المعهد الصادقي الذين تلقّوا ثقافة عصريّة، وتعرّفوا على أفكار المصلحين التّونسيّين، وفي مقدّمتهم مؤسسه الوزير خير الدّين لتدافع عن مصالح التونسيين ، وتبيّن تردّي أوضاعها وتنادي بتحسينها وقد كانت الخلدونيّة تابعه للزّيتونة، ومتعاونة معه بغية تحقيق نهضة ثقافيّة أحسن بالبلاد يدرس فيها طلبة الزّيتونة مختلف العلوم العصريّة كالكيمياء، والفلك والمنطق والرّياضيات والتّاريخ والجغرافيا، واللّغة الفرنسيّة ومباديء حفظ الصحّة والطّبيعيّات ، تنتهي بالإحراز على شهادة الباكالوريا العربيّة التي تهيّء الطّلبة للالتحاق بالجامعات العربيّة في المشرق للتخرّج في هذه المواد، ومن ثمّ يمكن إمداد الجامع بمدرّسين قادرين على تحقيق الإصلاح المنشود به.

احتفل رسميّا بتأسيسها في 15 ماي 1897، بحضور الوزير الأكبر، والمقيم العام، والكاتب العام للحكومة، ومدير التّعليم العمومي، وبالمناسبة ألقى الشّيخ سالم بوحاجب وهو أحد رموز الزّيتونة، والحركة الإصلاحيّة درسا افتتاحيّا حول تفسير آية " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ، فذكّر بماضي الإسلام المجيد في ميدان العلم والتعلّم ، وبيّن منزلة العلوم الكونيّة في نظر الدّين الإسلامي، وكيف تقهقر المسلمون

بسبب ابتعادهم عنها ، كلّ ذلك من أجل توعية وتنوير العقل التّونسي وإيقاظه من غفلته وتنبيهه لما يحاك ضدّه وضدّ هويّته الشّخصيّة، وتوجيهه إلى أنّ نهضة الشّعوب والأمم إنّما تبدأ خطوته الأولى بالنّهوض بالعلم والتسلّح به لمواجهة كلّ التّحديّات وأخطرها السيطرة الاستعماريّة.

ترأّس المدرسة الخلدونيّة محمّد الأصرم الذي كان من أبرز النّاشطين فيها، إذ كانت تقدّم فيها محاضرات، ودروس شملت مختلف ميادين المعرفة، والثّقافة، يلقيها أساتذة تونسيّون، وأجانب، وأشهرهم الشّيخ سالم بو حاجب، وحافظ الجمعيّة نفسه الأستاذ محمّد البشير صفر الذي كان متّصلا بحركة الإصلاح الإسلامي وزعمائها حيث التقى بالشيخ محمّد عبده أثناء زيارته لتونس في سبتمبر 1903 حيث ألقى محاضرة بالخلدونية حول "العلم والتّعليم"، وبزعيم النهضة الوطنية المصرية مصطفى كامل، وقد بلغ عدد مقالاته بجريدة الحاضرة ثمانية وخمسون خطبة، أو افتتاحية في السّياسة والفلسفة، والتّاريخ وكانت دروسه بجمعية "الخلدونية" إيقاظا للهمم وتحريكا لها خاصّة تلك التي خصّت التّاريخ، والجغرافيا، والتي كانت منبرا فضح فيه بقوّة حقيقة السّياسة الاستعماريّة حتّى أصبحت تلك الدّروس معهدا تتلقّى فيه التّوجيهات القوميّة قبل التّوجيهات العلميّة، الأمر الذي أدّى إلى التحاق الطّلبة الزّيتونيين بها، وإقبالهم عليها خاصّة أنّها لقيت مساندة ودعما من بعض كبار المسؤولين الفرنسيين أهمّهم المقيم العام روني ميي (René Millet) الذي عرف باحترامه للثّقافة العربيّة الإسلاميّة ، في حين أنّ أساتذة الجامع الأعظم انقسموا إلى فريقين بين مؤيّد ومعارض الأوّل من المتفتّحين أمثال الشّيخ سالم بوحاجب ساندوا التوجّه العصري للخلدونيّة ودعّموها،والثّاني وهم العلماء المحافظون الذين عارضوا وجودها، ودروسها حتّى لا تزاحمهم في نشاطهم التّعليمي، ولا تبعد الطّلبة عن التّكوين التّقليدي الذي يؤمّنه الزّيتونة منذ زمن طويل، أو تحوّلهم إلى أداة دعاية لحضارة الغرب ، ولم يقتصر موقفهم على ذلك فحسب، بل ناصبوها العداء وأسموها " الخل ودونيّة " تهكّما واستصغارا من شأنها، ولقّبوا أستاذها البشير صفر ب" البشير كفر. "

والأمر ذاته بالنّسبة للمتعصّبين من المعمّرين الذين رأوا في هذه المدرسة خطرا كبيرا، وأنّها ليست إلّا مركزا من الدّعاية للجامعة الإسلاميّة التي تهدف إلى توحيد المسلمين تحت راية السّلطان العثماني لمجابهة التوسّع الاستعماري الأوربيّ، فضلا عن أنّهم كانوا متوجّسين من دروس الخلدونيّة ومحاضراتها واعتقدوا أنّها سوف تحدث استفاقة في أوساط التّونسيّين، إذ أنّها تفتح أبصارهم على قيم فلسفة التّنوير ،ومبادئها كالمساواة، والحريّة، وحقّ تقرير المصير، وتجعلهم يطالبون فرنسا بتطبيقها في تونس، فكثّفوا ضغطهم على المقيم العام روني ميي حتّى يتخلّى عن دعمه لها.

ولأن كان موقف المعمّرين من ظهور الخلدونيّة، ونشاطها منطقيّا بحكم العداء بين المستعمر والمستعمَر، والخوف من ممّا قد تحدثه من تأثير في يقظة هذا الأخير فإنّ ردّ فعل المحافظين من العلماء الزّيتونيين لم يكن ليتقبّله العقل خاصّة مع وضوح أهداف المدرسة، وغاياتها المسطّرة منذ البداية، وهو العمل على قدم المساواة مع جامع الزّيتونة واستكمالا لنشاطه التّعليمي بتأطير من مسيّريها الذين هم في الأساس من خريجي الزّيتونة، ومن روّاد الحركة الإصلاحيّة في البلاد.

لم تثن الصّعوبات التي واجهتها المدرسة الخلدونيّة من عزيمة القائمين عليها فازدهرت وتواصل تفتّحها على محيطها وإشعاعها، وأضافت إلى تعليمها العاديّ دروسا ليليّة للأميّين، وأسّست لها شهادات في التّعليم التّطبيقي كالهندسة والطوبوغرافيا، وفتحت مكتبة أمّها أكثر من 4500 قارئ سنة 1905، وهكذا أصبحت الخلدونيّة بمثابة جامعة شعبيّة حقيقيّة تلبّي رغبة التّونسيّين المعروفة في العلم ،والتعلّم وتحبط مخطّطات الاستعمار الذي كان يضيّق على الأهالي أيّما تضييق في

ميدان التّمدرس ،والدّخول إلى المؤسّسات التّعليميّة الرّسميّة ، غير أنّ ضيق مقرّها ،وتواضع إمكانيّاتها الماديّة لم يمكّن الخلدونيّة من استيعاب أكثر من 150 طالبا مقارنة مع طلبة جامع الزّيتونة الذين تجاوز عددهم ال 700 ، لذلك ارتفعت الأصوات منادية بضرورة إصلاح التّعليم الزّيتوني محاكاة لما هو عليه الحال في الخلدونيّة ، فاجتمعت لجنة خاصّة برئاسة الوزير الأكبر، وقرّرت إلزاميّة إدراج الامتحان في عدّة مواد كالحساب،والهندسة، والتاريخ، والجغرافيا بالجامع ، على أن تدرّس بالخلدونيّة ، وبذلك ازداد الارتباط بين المؤسّستين التّعليميّتين.

لقد أدخلت الخلدونيّة حيويّة ملحوظة على السّاحة الفكريّة التّونسيّة مطلع القرن العشرين، غير أنّ ما صاحبها من اختلاف في الرّؤى، وصراع بين قوى مجدّدة وأخرى محافظة بيّن أنّ حركة الإصلاح والتّحديث في تونس مازالت تحتاج إلى روافد أخرى تدعمها وتشدّ من أزرها، فتقرّر بعث" جمعيّة قدماء الصّادقيّة " سنة 1905.

تأسّست الصّادقيّة في 23 ديسمبر برئاسة خير الله بن مصطفى ، غير أنّ علي باش حمبة الذي تولّى وكالة أحباسها كان هو المسيّر الفعلي لها، والمشرف على معظم أنشطتها، وخاصّة منها الثّقافيّة كتنظيم المحاضرات والدّروس، حتّى أصبحت جامعة شعبيّة تضاهي الخلدونيّة، خاصّة أنّها دعت إلى الأخذ بالأفكار العصريّة والتّنفس التّحديثي.

وأغلب الذين ساهوا في تأسيسها رغم ثقافتهم المزدوجة ، وتشبّعهم بروح الثّورة الفرنسيّة إلّا أنّهم كانوا من قادة الحركة الإصلاحيّة الذين تعلّموا في الزّيتونة، وتخرّجوا من المعهد الصّادقي، ونشطوا في الخلدونيّة، ممّا يدلّ على أنّ الغاية واحدة والهدف مشترك بين المؤسّستين، أمثال خير الله بن مصطفى، وعلي باش حامبة الذي كان أنشط عضو فيها، وهو الذي حرّر التّقرير الأوّل لإنشائها، وعبد الجليل الزاوش وأحمد الغطّاس ، وحسين بوحاجب، وحسن قلاتي وغيرهم .

نشطت الجمعيّة الصّادقيّة نشاطا مكثّفا ، حيث قدّمت بين أفريل 1906 وأفريل 1907 : 48 محاضرة، منها 27 بمقرّ الجمعيّة، و57 بمختلف أنحاء العاصمة تمحورت حول مواضيع متنوّعة مثل حفظ الصحّة، والتّاريخ الإسلامي، والتّأمين التّعاوني، والادّخار،ووضعيّة الفلاحة، والصّناعة بتونس، وقد تميّزت الصّادقيّة عن الخلدونيّة بتفتّحها أكثر على الحضارة الغربيّة بحكم ثقافة المشرفين عليها، فاستدعت لإلقاء محاضراتها كتّابا فرنسيّين معروفين مثل جول برازون (Jules Brazon)وشارل جينيو

(Charles Géniaux)وغيرهم، وهدفت من ذلك إلى الاستفادة من تقدّم المعرفة لدى الأوربيّين، وتبليغ صوت التّونسيّين إلى الفرنسيّين بلغتهم، وللتّدليل على أنّ النّخب التّونسيّة متفتّحة، وبلغت من المعرفة ما يسمح لها بقيادة بلادها دون أيّ تدخّل

أو وصاية أجنبيّة.

ولتأكيد توجّهم الوطني، وتجذّرهم في حضارتهم استدعى مسؤولو قدماء الصّادقيّة شيوخا زيتونيّين معروفين لإلقاء مسامرات (محاضرات) في مقدّمتهم الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور الذي تحدّث عن أصول التقدّم، والمدنيّة في الإسلام والشيخ محمّد النّخلي عن دولة المأمون، والشّيخ محمّد الخضر حسين عن الحريّة في الإسلام، كانت كثيرا ما

تتخلّلها نقاشات، ومساجلات حول تجاوزات الإدارة الاستعماريّة ووضعيّة التّونسيّين المتردّية وحقوقهم المهضومة رغم أنّ القانون يمنع على الجمعيّات الخوض في المسائل السّياسيّة، والدّينيّة ،وهي مواضيع مهمّة كانت عبارة عن دعوة مبطّنة للتّونسيّين لأخذ العبر من التاريخ الإسلاميّ، والاستفادة منها، خاصّة حقّ الإنسان في الحريّة،وهو الحقّ الذي تكفله الدّيانات السّماويّة ومختلف القوانين الوضعيّة.

لقد مهّد العمل الثّقافي والتّربوي إلى جانب العمل الصّحفي الطّريق لانبعاث النّشاط السّياسي انطلاقا من سنة 1906 بقيادة نخبة متخرّجة أساسا من المعهد الصّادقي، والكليّات الفرنسيّة أطلق عليها اسم " حركة الشّباب التّونسي " التي ظهرت سنة 1907 بإصدارها لجريدة التّونسي (le tunisien) الناطقة بالفرنسيّة برئاسة علي باش حمبة ، ثمّ انظمّ إليه عبد العزيز الثعالبي الذي أصبح من أنشط مريديه، وما لبث أن أصدر الطّبعة العربيّة من التّونسي سمّيت " الإتّحاد الإسلامي " في19 أكتوبر 1911 وترأّس بنفسه تحريرها ، وتركّزت مطالب الحركة على مجموعة من الأصعدة أهمّها الصّعيد السياسي بالدفاع عن سياسة "التشريك (Association) "من خلال تمثيل التونسيين بالمجلس الشوري الذي أحدث سنة1891، وعلى الصّعيد الاقتصادي بالمساواة بين الفرنسيين والتونسيين في اقتناء الأراضي الفلاحية، وإحداث شركات تعاونية لصغار الفلاحين ، وتخفيض ضريبة المجبى، وعلى الصّعيد التّربوي بالتّركيز على مؤسّسات تعليم مزدوج باللّغتين العربيّة والفرنسيّة، والمناداة بإجبارية المرحلة الابتدائية ومجانيتها أمّاالصّعيد القضائي فمن خلال إصلاح الهياكل القضائية وإحداث مجلاّت قانونية لكي يتسنّى إدخال حدّ معقول من التّجانس بين مختلف الدّوائر القضائيّة التّونسيّة.

ولئن تبيّن من خلال ما سبق أنّ الحركة لم تدرج مطلب أو قضية الاستقلال في برنامجها نظرا إلى طبيعة موازين القوى بين الحامي والمحميّ من جهة وهشاشة المرحلة من جهة أخرى فإنّها ساهمت في الترويج لجملة من الأفكار الجوهرية التي ستمكّن الحركة الوطنية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى من مراكمة رصيد مرجعي متنوّع وفي مقدّمة هذه المبادئ؛ التمسّك بدستور 1861، والمطالبة بإعادة إحيائه مع أنّ هذا المطلب لم يرد في برنامج 1907، بل أثير في مناسبات عديدة لمطالبة سلط الحماية بضمانات سياسية، وقانونية تكفل حقوق التّونسيين .

وتكمن أهميّة الحركة في أنّه كان لها السّبق في بلورة نظرة حديثة للانتماء الوطني بتحديد المصطلحات الدّالة على الهوية الوطنية، وإكسابها معان جديدة تتلاءم مع روح العصر، وقد أدّى ذلك إلى تجديد الخطاب السياسي التونسي بإقحام مفاهيم جديدة في اللّغة السّياسية المتداولة مثل مصطلح " الشعب التونسي" ، ومصطلح " الأمّة التّونسيّة " ، ولم يكن ذلك هيّنا نظرا لتداخل تمثّلات هذه المفاهيم الحديثة لدى الرّأي العام، إذ أنّ التّمييز بين "الأمّة الإسلامية" كمجال ثقافي سياسي عام أساسه التّضامن بين الشّعوب في إطار الإمبراطوريّة العثمانيّة، و" الأمّة التونسية"كمجال ثقافي سياسي خاص أساسه التّاريخ المشترك لأفراد شعب جاء نتيجة تحوّلات جغرافيّة سياسيّة وتراكمات تاريخية وظّفتها حركة الشّباب التّونسي في سجالها مع إدارة الحماية وخاصّة حزب المعمّرين قبل وأثناء الحرب العالميّة الأولى.

ونتيجة تزايد وتيرة نشاط حركة الشّباب التّونسي خاصّة عقب أحداث الزلّاج 1911 والتّراموای 1912 اعتقلت سلط الحماية الفرنسيّة سبعة من قادتها، بينهم علي باش حامبة والشيخ عبدالعزيز الثعالبي وأبعدتهم خارج البلاد، وأوقفت جريدتهم ونظمت حملة إرهاب واعتقالات واسعة بين السكّان، وفرضت حالة حصار عام على البلاد التّونسيّة ،الشّيء

الذي جعل نشاط الحركة يبرز في المهجر بقيادة الأخوين علي ومحمّد باش حامبة والشّيخان صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي، حيث استقرّ علي باش حامبة زعيم الحركة نهائيا بالآستانة ، أين تقلّد خطّة مستشار الحكومة التركية، واضطلع بمهام تنسيق نشاط الوطنيّين التونسيين في المهجر بوصفه رئيس "لجنة تحرير المغرب العربي" سنة 1916.

ثالثا : الزّيتونيّون و تبنّي مطلب الاستقلال :

بدأت المقاومة الشّعبيّة التونسيّة للاحتلال الفرنسي منذ الوهلة الأولى في مختلف القطر التونسي، وفي طليعتهم رجال الزّيتونة الذين كانوا متشبّعين بالرّوح الوطنيّة والقوميّة والعربيّة والإسلامية ، مؤمنين بضرورة الذّود عن الدّين والوطن والنّفس وبمشروعيّة الجهاد وكان أبرزهم الشّيخ المكّي بن عزّوز وهو أحد شيوخ جامع الزّيتونة الذي عرف بروحه الثّوريّة الرّافضة للمستعمر، لذلك كوّن مجموعة من الشّباب التونسي الثوري وقاوموا الاستعمار،واستمرّوا في ذلك، وبسبب نشاطه المعادي لها نفته سلط الحماية إلى المشرق العربي أين توفّي هناك، وإن لم يكن الشّيخ المكّي قد توفّي فإنّ أفكاره لم تمت، إذ تبنّاها ثلّة من الشّباب الوطني المتحمّس -كان من بينهم عبد العزيز الثّعالبي - الذين سرعان ما اجتمعوا وأسّسوا جريدة بالفرنسيّة للدّفاع عن مصالح التّونسيّين أسموها " المستقبل العربي "، وأخرى بالعربيّة باسم " حبيب الأمّة " ،ثمّ " سبيل الرّشاد " التي صدر عددها الأوّل في 16 ديسمبر 1895 تبنّى فيها مؤسّسها عبد العزيز الثعالبي مبدأ الإصلاح والإرشاد، على غرار جريدة الحاضرة الأسبوعيّة التي كانت أوّل جريدة عربيّة غير رسميّة بتونس كان يديرها فرسان الفكر الإصلاحي البشير صفر، وسالم بوحاجب ومحمّد السّنوسي.

ورغم انتهاج التّونسيّين للعمل الإصلاحي سواء من خلال عمليّات إصلاح التّعليم الزّيتوني ونشاط المدرسة الخلدونيّة ، وجمعيّة قدماء الصّادقيّة اللتين حاولتا محاكاة التطوّر الأوربّي واللّحاق بركب الحضارة الأوربيّة المتقدّمة اجتماعيا وثقافيّا وتكنلوجيّا ،أو من خلال العمل الصّحفي والمطلبي الذي تبنّته حركة الشّباب التّونسي محاولة الحصول على حقوق التّونسيين المختلفة، وإقناع سلط الحماية باتّباع سياسة التّشريك، إلّا أنّ محاولاتها باءت بالفشل بسبب تصلّب الإدارة الفرنسيّة الذي اتّضح جليّا بعد أحداث الزلّاج، والتراموای وخنق الحريّات، وإبعاد الوطنيين من جهة، وتعصّب حزب المعمّرين الذي كان يقوده فكتور دوكرنيار (Victor De Carnières) الذي قاد حملة عنصرية شنيعة ضدّ الأهالي أساسها أنّ "الشّعوب المولّى عليها من قبل الدولة الفرنسية ليست متحضّرة بالدّرجة التي تجعلها تفهم أبعاد مبادئ 1789، وهنا يجب على النظرية (...) أن تفسح المجال للضرورة" ،الأمر الذي أدّى بالوطنيّين التّونسيّين إلى الإعراض عن مبدأ الإصلاح وسياسة التّشريك إلى المطالبة بحقّ الاستقلال الذي كان يطمح إليه كلّ التّونسيّين منذ أوّل مقاومة تونسيّة للقوّات الفرنسيّة.

لم تحدّ السّياسات الاستعمارية من عزيمة رجال الحركة الوطنيّة التّونسيّة الذين واصلوا نشاطهم في الدّاخل والخارج، حيث استمرّت تحرّكات زعيم حركة الشّباب التّونسي علي باش حامبة في عاصمة الدّولة العثمانيّة، إذ أشارت الوثائق الأرشيفية الألمانية إلى مخطّطه في تحرير المغرب العربي بحدّ السّلاح، ولئن لم يتمّ تحقيق هذا المشروع بحذافيره فإنّ الرّجل شارك إلى جانب محمّد العتّابي من المغرب الأقصى في المؤتمر الإسلامي المنعقد بستوكهولم سنة 1917 ، والذي ضمّ ممثّلين عن جميع البلدان الإسلامية المحتلّة وأقرّ مطلب استقلال المغرب الأقصى ، أمّا أخوه محمّد باش حامبة فقد تحوّل إلى سويسرا حيث استقرّ بجنيف وأصدرمجلّة المغرب La Revue du Maghreb " الشّهرية والنّاطقة باللّغة

الفرنسيّة التي أعلنت منذ عددها الأول سنة 1914 بصريح العبارة عن "إفلاس سياسة التّشريك" التي كانت تنادي بها جريدة "التونسي" ثم طلبت بكلّ وضوح في السنة الموالية (1917)وباسم الشعب التونسي إصدار دستور يمنح ضمان الحقوق والحريات الفردية، والفصل المطلق بين السلطات، وإلغاء كلّ نظام استثنائي، ومساواة الجميع أمام قانون موحّد،وإحداث مجلس تشريعي ومالي منتخبوتنظيم البلديات، وإحداث مجلس بلدية منتخبة، وإحداث مجالس إقليمية منتخبة ، كما أقرّت توجّهها المغاربي ببناء علاقات نضاليّة بين بلدان المغرب العربي التي ترجع جذورهإلى صدور جريدة التونسي سنة 1907 ومبادرة القياديّين في حركة الشّباب التونسي بإرساء مشروع وحدة نضال شبّان المغرب العربي، والتّخطيط لعقد مؤتمر للتونسيّين والجزائريين غير أنّ المشروع أحبط بحملة من الصّحافة الاستعمارية، بيد أنّ الفكرة بقيت قائمة في ذاكرة الشيخ عبد العزيز الثعالبي خلال إقامته بالأستانة، وسعى لتحقيقها على أرض الواقع.

ولئن كان لقيام الثورة البلشفية (أكتوبر 1917) تأثير على مواقف الوطنيين التّونسيّين، فإنّ موقف المجلة التّضالي من أجل تحرير الشّعوب قد تدعّم إثر الإعلان عن مبادئ الرئيس الأمريكي ولسن(Wilson) الأربعة عشر التحرّرية في مؤتمر السّلام في سبتمبر 19018 الذي عقد بقصر المرايا بفرساي في فرنسا عقب الحرب العالمية الأولى فانتقلت توجّهات النّخبة التّونسيّة من فكرة الدّستور إلى فكرة الاستقلال لأنّ الشعب الجزائري والتونسي- كما لاحظت المجلة ذلك- لم يتنازل عن استقلاله رغم خضوعه لنظام خاص من الجور والعنف والإذلال والإرهاب الدائم، وهو يهيب بالضمير العالمي ليعترف له بحقّه في العيش حرّا مستقلاّ ولم يقتصر عمل محمّد باش حامبة على إدارة "مجلّة المغرب" بل شمل إنجاز عدّة مؤلّفات دعائية باللغة الفرنسية منها: العدلية التونسية (جنيف(1917،الشعب الجزائري التونسي وفرنسا)جنيف 1917)، مناورة فرنسية: الإصلاحات الأخيرة بالجزائر)جنيف(1918 الحماية الفرنسية بتونس (جنيف (1918، كما شارك في أشغال المؤتمر الثالث للقوميات المضطهدة المنعقد بلوزان من 27 إلى 29 جوان 1916 وعرض فيه مطالب مسلمي الجزائر وتونس.

وبالتّوازي مع نشاط الأخوين علي ومحمّد باش حامبة ، يعدّ الشيخ صالح الشريف من أبرز قادة الحركة الوطنية في المهجر أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ كلّفته الحكومة التركية بالقيام بمهمّة خاصة في ألمانيا صحبة الشيخين إسماعيل الصفايحي ومحمّد الخضر حسين تمثّلت في الاتّصال بأسرى الحرب المغاربةتونسيونوجزائريون ومغاربة وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزوّد بالسّلاح والذخيرة وترسل عن طريق الغوّاصات إلى طرابلس، وكذلك بادر بتكوين "لجنة استقلال تونسوالجزائر" ببرلين للدّفاع عن قضايا الشعوب المغاربية، ومن مؤلّفاته الدعائية أيضا: حقيقة الجهاد (بارن 1916) تونس والجزائر (بالاشتراك مع إسماعيل الصفايحي برلين 1916) ، حجج دامغة حول وجوب خروج الفرنسيين من تونس ، كلّ ذلك وإن دلّ على شيء إنّما يدلّ على مدى تجذّر فكرة الاستقلال لدى الوطنيين التّونسيّين، وسعيهم الحثيث من أجل تكييف مطلبهم مع التطوّرات الوطنيّة والدوليّة، لاغتنام الفرصة المناسبة للإعلان عن مطلب الاستقلال والدّفاع عنه، والتّعريف بالقضيّة التحرّريّة للشّعب التّونسي.

وأمام هذا النّشاط المكثّف للوطنيّين التّونسيّين في المهجر اندلعت مقاومة قبائل الجنوب التونسي التي استجابت لدعوة السّنوسي للجهاد ، لكنّ القوّات الفرنسيّة سرعان ما قضت عليها وسيطرت على الوضع الدّاخلي من جديد، غير أنّ

النّخبة الوطنيّة التّونسيّة سترفع من وتيرة نضالها من خلال دعوتها إلى تأطير عملها ، وتنظيمه في إطار حزب قانونيّ يكون هدفه الأوّل، والأساس هو مطلب الاستقلال.

ولمّا انتهت الحرب أرسل الوطنيّون التّونسيّون الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى باريس في 10 جويلية 1919لعرض القضية التونسية على مؤتمر الصلح، مثل غيره من زعماء الشّرق محاولا جمع الرّأي العام الفرنسي لتلبية مطالب التّونسيّين، فرفع عريضة طالب فيها بإنصاف الشّعب التّونسي، وحقّه في الاستقلال ، وأثناء إقامته هناك اتّصل الثعالبي بمعيّة المحامي أحمد السقا، بالأحزاب الفرنسيّة ونشر كتاب " تونس الشهيدة الذي أصدره دون مؤلّف بعنوان Tunisie " MartyreLa، سنة 1920 حمّل فيه الاستعمار الفرنسي مسؤولية حالة البؤس، والفقر التي آل إليها الشّعب التونسي وأبرز من خلاله مطالب التونسيّين.

وبينما كان الشّيخ الثّعالبي وصديقه أحمد السقّا يحاولان في باريس استمالة المتحرّرين الفرنسيين للمسألة التّونسيّة، التقّ الوطنيّون الذين مكثوا بالعاصمة التّونسيّة حول بعضهم ، وكرّروا الاجتماعات فيما بينهم، وحرّروا العرائض التي وجّهوها إلى باريس لمساندة الثّعالبي في الوقت الذي أثار مشروع الإدارة الفرنسيّة الرّامي إلى انتزاع قطع أرض من الأوقاف الخاصّة سخط جميع الوطنيّين، ذلك أنّ محاولة استيلاب الأوقاف الخاصّة التي اعتبرت انتهاكا للتقاليد الإسلاميّة الأساسيّة قد تسبّبت في تحقيق الوحدة بين الشبّان التّونسيّين المتخرّجين معظمهم من الجامعات الفرنسيّة، وبين شيوخ جامع الزّيتونة، فما إن وصل كتاب تونس الشّهيدة إلى تونس حتّى تبنّى زعماء الحركة الوطنيّة التّونسيّة فكرة الدّستور، وجعلوها أهمّ مطلب من المطالب الواردة في البرنامج الذي وضعوه بعد جهد جهيد، واجتماعات متعدّدة، وعندما اطّلع عبد العزيز الثّعالبي على ذلك البرنامج صادق عليه، وتقرّر تقديمه إلى الباي، والمقيم العام، ورئيس مجلس الشيوخ، ومجلس النوّاب في فرنسا.

وفي 16 جوان 1920 انتظم في مقرّ الإقامة العامّة حفل استقبال رسميّ بمناسبة قدوم السيّد دي كاستيون سان فيكتور (de kasttion san victor) المقيم العام بالنّيابة ألقى أثناءه الشّيخ محمّد الصّادق النّيفر أحد مدرّسي جامع الزّيتونة خطابا باللغة العربيّة احتجّ فيه احتجاجا صارما على تدخّل فرنسا في شؤون البلاد الدينيّة (قضيّة الأوقاف الخاصّة)، واتّخذ فيه موقفا مواليا للمطالب الوطنيّة، وطالب الشّيخ أمام أسمى المسؤولين الفرنسيين منح دستور لتونس.

وبعد يومين تولّى الشّيخ الصّادق رئاسة الوفد الذي قدّم المطالب الدّستوريّة إلى الباي محمّد النّاصر،في حين قدّمه الشّيخ الثّعالبي في باريس إلى رئيس مجلس النوّاب ومجلس الشّيوخ ،والذي تضمّن 08 نقاط أساسيّة.

وبذلك تشكّلت على السّاحة السيّاسيّة التونسيّة أربعة اتّجاهات؛ الأوّل اتّجاه ثوريّ دعى إلى الاستقلال الكامل، ومعاداة الفرنسيين علانية، و قد مثّله محمد باش حامبة الذي كثيرا ما حاول التّأثير على عبد العزيز الثعالبي لاتّباعه وتحريضه على المطالبة بحقّ الاستقلال التّام، وألحّ عليه في مراسلاته على حثّ التونسيين على الإعلان عن رفضهم لسلطة الحماية والتّصريح بالانفصال عن فرنسا، لأنّ سياسة الرّجاء، والتّسامح لم تعد تجدي نفعا " وأنّ زمن العمل في الخفاء قد ولّى وراح ، ويجب المطالبة بالاستقلال صراحة دون مراوغة ، والإعلان عن الهدف للشّعب (الاستقلال)،

وهو الطّريق السّليم لأنّ فرنسا مازالت تعتبرنا شعبا مغلوبا على أمره، رغم ما ضحّينا به من أجلها" ،والاتّجاه الإصلاحي الذي نادى بالمساواة بين الفرنسيين، والتّونسيّين ، وتحقيق حكم ذاتيّ في إطار الجمهوريّة الفرنسيّة، ومثّله حسن قلّاتي، والاتّجاه الثّالث اتّجاه معتدل سعى إلى النّهوض بالتّونسيين في إطار سلط الحماية ومثّله فرحات بن عيّاد، وعلي كاهية،والشّاذلي القسطلي، أمّا الاتّجاه الرّابع فهو الاتّجاه الواقعي المرن، ومثّله عبد العزيز الثعالبي ومحمّد الرّياحي، وابن يحيى، وقد استغلّ أصحاب هذا الاتّجاه ظروف نهاية الحرب فطالبوا بالاستقلال ثمّ عدلوا عن هذه السّياسة لمّا رأوا عدم جدواها، وسلكوا بدلا من ذلك منهج الإصلاح.

كان الاتّجاه الذي سلكه عبد العزيز الثّعالبي واقيّا، عربيّا إسلاميّا في أصله، ولم يكن أصحابه يؤمنون في قرارة أنفسهم بسياسة التّعاون مع الفرنسيّين، إنّما آمنوا منذ البداية بالاستقلال الكامل متمسّكين بمباديء السّلم 14 ، ومتعلّقين بسراب الشعارات الفرنسيّة أثناء الحرب العالميّة الأولى، وقد ظهر ذلك جليّا في محافظتهم على أصالتهم العربيّة الإسلاميّة التي تمثّلت في سياسة عبد العزيز الثعالبي، وفي آرائه التي تضمّنها كتابه تونس الشّهيدة ،وهي الآثار التي أثّر بها على باقي الاتجاهات فسارت في ركابه حين تقديم العريضة لمؤتمر فرساي 1919، لكنّ الآية انعكست بعده، فرضخ الاتّجاه الواقعي إلى الاتّجاهين الآخرين الإصلاحي والمعتدل، وسار على منوالهما، وصارت مبادؤهم قدرا مشتركا وبذلك أصبح الاتّجاه الرّابع واقعيّا مرنا بعد أن كان ثوريّا متصلّبا ونلمس هذا التحوّل جليّا واضحا في أهداف برنامج الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي السياسية.

ولعلّ ما ساهم في ذلك فشل الحزب الاشتراكي الفرنسي في انتخاباته شهر أكتوبر1919 وهو الحزب الذي علّقت عليه النّخبة التّونسيّة بعض آمالها كونه كان متعاطفا مع القضيّة التّونسيّة، فكانت هزيمته ضربة قاصمة لهم خاصّة بعد فشل الوفد التّونسي، وتهميش مطالبه، ومطالب بقيّة المستعمرات في مؤتمر التّسوية بعد الحرب العالمية الأولى واقتناعهم أنّ المباديء الولسونيّة 14 إنّما هي حكر على شعوب أوربّا وقوميّاتها لا على شعوب المستعمرات المستضعفة، وأنّ مجرّد التّفكير في المطالبة بحقّ تقرير مصيرهم، وإنصافهم هي ضرب من الخيال، فضلا عن تشتّت قادة الحركة الوطنيّة التّونسيّة بين مختلف أنحاء العالم على رأسهم محمّد باش حمبة الدّاعي لمطلب الاستقلال التّام، واختلاف إيديولوجياتهم و أفكارهم من جهة وتعنّت الإدارة من جهة أخرى الأمر الذي أدّى إلى بروز آراء مختلفة، حاول عبد العزيز الثّعالبي الذي أصبح زعيم الوطنيين التونسيين الأوّل أن يوفّق بينهم.

أسّس عبد العزيز الثّعالبي الحزب الحرّ الدّستوري التونسي على مبادئ تقضي بإنقاذ تونس من نير العبوديّة، وإنهاء الوضع المأساوي عن الشّعب التّونسي، ومن أجل تكريس حقّه في التحرّر مثلما هي كلّ الشّعوب الحرّة، والمطالبة بنظام دستوري، وتأليف حكومة وطنيّة مسؤولة أمام الشّعب، باعتبار أنّ تونس كان لها دستورا معلنا منذ 1861 فطالب الدّستوريّون بعودة العمل به، وهو سرّ اختيار الحزب للتّسمية بالدّستوري ،واعتمد الحزب في أرضيّته على اتّفاقيّة باردو ماي 1881 التي نصّت على أن يسيّر التّونسيّون بلادهم بمساعدة فرنسا التي تكتفي بالإشراف والحماية الخارجيّة ، أي المطالبة بالحكم الذّاتي للبلاد التونسيّة، كما طمحوا من خلال الدّستور إلى الفصل بين السّلطات التّشريعيّة، والتّنفيذيّة، والقضائيّة، والضّمان لاحترام الحريّات الشّخصيّة ،والإقامة والتجمّع والتملّك، والرّأي، والنّشر ، ومنح نوّاب الشّعب حقّ المشاركة في الحكم، وقد قامت إيديولوجيّة الإصلاح عند عبد العزيز الثّعالبي على أنّ التّراث العربي

الإسلامي هو مصدر التّشريع الملائم للبلاد التونسيّة والعربيّة، وأنّ العرب أمّة واحدة، ولابدّ لها أن تتوحّد، فدعى للوحدة، والدّين، والتّوعية الصّحيحة القائمة على الاتّصال المباشر، والمستمرّ بالجماهير الشّعبيّة، لذلك رسم الحزب منذ البداية هدفه لإنقاذ الشّعب التونسي من الاستبداد، وإنالة الحقوق والحريّات التي تتمتّع بها كافّة الشّعوب الحرّة.

لقد مثّلت الأفكار الإصلاحيّة، ورصيد حركة الشّباب التونسي الأرضيّة الصّلبة لإيديولوجيّة الحزب، خاصّة أنّ أغلب الدّستوريّين كانوا من الزّيتونيين، لذلك كانت أداة الكفاح لديهم تقوية الرّابطة الإسلاميّة وإحياء الهويّة من أجل تحقيق الحريّة والمحافظة على الذّاتيّة التونسيّة، وتدعيمها، وتخليص التونسيين من الاستعباد، وتمتّعهم بحقوقهم وحريّاتهم ، لذلك طالب بالاستقلال الذّاتي كمرحليّة أوليّة تمهيدا لتبنّي مطلب الاستقلال التّام ريثما تواتي الفرصة لذلك، وهو ماتوّج به المؤتمر الوطني التونسي " مؤتمر ليلة القدر " الذي شاركت فيه مختلف أقطاب الحركة الوطنيّة التونسيّة حتّى سمّي بمؤتمر الاستقلال 1946 حيث أجمع الحاضرون لأوّل مرة على المطالبة بالاستقلال، ووضع حدّ لنظام الحماية ، ورفض كلّ الإصلاحات الإدماجيّة التي تكرّس مبدأ السّيادة المزدوجة.

الخاتمة :

من خلال ما سبق يمكننا التّأكيد على الأهميّة التّاريخيّة للزّيتونة ودوره في صياغة مطلب الاستقلال الوطني خلال الفترة المدروسة من الحقبة الاستعماريّة لتونس من خلال النّقاط التّالية:

1.رغم الرّكود والجمود الذي أصاب العمليّة التّعليميّة في جامع الزّيتونة في بعض الفترات ،إلّا أنّه يرجع إليه الفضل الأوّل في محافظته على المقوّمات العربيّة والإسلاميّة للبلاد التّونسيّة ، وهو الذي أمدّها بخيرة رجالها الذين كرّعوا منه مباديء الوطنيّة والإسلام ،فتزعّموا حركة النّضال المسلّح، والسّياسي ضدّ الهيمنة الاستعماريّة الفرنسيّة، دفاعا عن السّيادة الوطنيّة.

2.لعب جامع الزّيتونة دورا فعّالا في الحركة الوطنيّة، وتجلّى ذلك في مواقفه من سياسات سلط الحماية منذ بدايتها سنة 1881 خاصّة تلك التي هدفت إلى تغريب ،وفرنسة كلّ ما هو تونسيّ ،وتعبئة الجماهير التّونسيّة ومساندتها خاصّة في مطالبها الإصلاحيّة .

3.احتضنت المؤسّسة الزّيتونيّة القضيّة الوطنيّة ،وساهم إلى جانبها المدرسة الخلدونيّة والجمعيّة الصّادقيّة في إيقاظ الرّوح الوطنيّة، وترسيخ مفهوم الوطنيّة لدى التّونسيّين التي ترتكز أساسا على ما يميّز المجتمع التّونسي من خصوصيّة ذاتيّة أهمّها اللغة العربيّة والدّين الإسلامي اللذان مثّلا عماد الهويّة الوطنيّة لتونس.

4.لم يكن تفتّح نشطاء الخلدونيّة ،ومن بعدها الصّادقيّة من النّخبة الوطنيّة التّونسيّة إلّا صورة من صور المواجهة الثّقافيّة، وإثبات قدرتهم على الاستقلال ،وعلى تسيير شؤون بلادهم دون أيّ وصاية خارجيّة وما دلّ على ذلك تفعيل المشائخ الزّيتونيّين لمحاضراتها، والنّقاشات السياسيّة التي دارت رحاها فيها، رغم أنّ الأمر كان محضورا عليهم.

5.لقد مهّدت العمليّة الإصلاحيّة في الميدان الصّحفي والتّربوي والثّقافي، والتي قادها روّاد الصّرح الزّيتوني إلى تكثيف العمل السّياسي الوطني الذي أسفر على ميلاد حركة الشّباب التّونسي بزعامة علي باش حامبة وانتهاجها مبدأ تشريك

العنصر التونسي في إدارة أمور بلاده نظرا لاختلال موازين القوى بين الحامي والمحمي، الأمر الذي حذى بالوطنيين التّونسيّين إلى تأجيل إدراج حقّ الاستقلال ضمن مطالبهم الوطنيّة إلى غاية فشل مساعي الوفد التّونسي المرسل إلى مؤتمر الصّلح 1919، وتبخّر آمالهم مع اكتشاف عنصريّة المباديء الولسونيّة التي خصّت الشّعوب الأوربيّة دون غيرها، ممّا أدّى بثلّة من الوطنيّين الثوريّين بالمناداة بالاستقلال التّام غير منقوص لتونس في وقت مبكر.

الهوامش: